الباب الثامن

في الإنفاق في سبيل اللّه

يقول الله تبارك وتعالى في كتابه العزيز: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۗ وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[سورة البقرة: ٢٥٤]. وقال أيضا: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [سورة البقرة: ٢٦١].

رحمة الله للبشرية :

جاء الإسلام نظاماً عاماً متكاملاً، للعدل والإنصاف، مؤاخياً بين بني البشر، فوجد لدى العرب مجموعة من الأخلاق الفاضلة، والمزايا الكاملة، فأقرها الإسلام، وحثّ عليها ورغّب الاستمرار للعمل بها لأنها لا تتعارض مع ما يدعو إليه الإسلام،ومن ذلك أخلاق الكرم وصفاته وطرقه.

وإن كان قد ذكر لنا التاريخ الجاهلي بعض الذين سار ذكرهم مضرب المثل، وهم يعدون على الأصابع لقلتهم، وندرتهم، فإن ذلك يعود إلى حبّ المحمدة العاجلة،من البشر والتفاخر بذلك.

جاء الإسلام بنظامه العادل، جاء بنظام يشمل الأولين والآخرين إلى يوم الدين، وفي الوقت نفسه يشمل العاجلة والآجلة، أي إذا كان الكريم قبل الإسلام يهدف ويرجو بما يقوم به الفخر والمحمدة، وعدم وصفه بالبخل والشح والأنانية، وقصر ذلك على الدنيا الفانية.

فإن الإسلام جاء ليجمع فضل الدنيا والآخرة، للكريم المؤمن، قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَ﴾ [سورة التوبة: ١١١].

وقد يكون ما أنفقه الكريم، في الكرم آل إليه بطريق الغزو والغلبة، على قوم آخرين، أي بوجه غير شرعي، فينال به الذكر لشخصه ولقبيلته.

لكن الأمر في الإسلام، يختلف عنه في الجاهلية، ففي الإسلام يجب أن يكون الإنفاق خالصاً مخلصاً لوجه الله، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءٗ وَلَا شُكُورًا﴾ [سورة الإنسان: ٩].

والإسلام بنظامه وتشريعاته ، لا يبدأ بالفرض والتكليف، وإنما يبدأ بالحضّ والحثّ والتأليف، إنه يستجيش المشاعر والانفعالات الحية في الكيان الإنساني كله، إنه يعرض صورة من صور الحياة النابضة النامية المعطية الواهبة فيضرب لنا المثل بالزرع والأرض المخلوقة لله التي تعطي بدل الحبة سبعمائة حبة، فالزرع الذي يعطي أضعاف ما يأخذه، ويهب غلاته أضعافاً مضاعفة بالقياس إلى بذوره، يعرض هذه الصورة الموحية، إلفاتاً لنظر الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله حيث قال سبحانه وتعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [سورة البقرة: ٢٦١].

إن المعنى الذهني للتعبير ينتهي إلى عملية حسابية، تضاعف الحبة الواحدة إلى سبعمائة حبة، أما المشهد الحي العظيم، الذي يعرضه التعبير القرآني ، فهو أوسع من هذا وأجمل، وأكثر استجاشة للمشاعر المؤمنة، وتأثيره للضمائر، إنه مشهد الحياة النامية، مشهد الطبيعة الحية، مشهد الزراعة الواهبة، ثم المشهد العظيم العجيب في عالم النبات، الحبة التي ينمو منها سبعة أعواد، يحمل كل عود سنبلة، في كل سنبلة مائة حبة، إنه مشهد من مشاهد العالم المحسوس،وهو كفيل لأن ينقل الإنسان من عالم المحسوس إلى عالم الروحيات، ومن عالم الفناء إلى عالم البقاء، ومن عالم الجمود إلى عالم الحركة والتفاعل.

والله سبحانه وتعالى يريد بحكمته أن يتجه الإنسان بما يضربه الله من الأمثال في موكب الحياة النامية، الواهبة ليتجه بالضمير البشري إلى البذل والعطاء، من أجل أن يأخذ أكثر مما يعطي، فإن أنفق حبة في سبيل الله فهي تعود إلى المنفق سبعمائة حبة.

وتمضي موهبة العطاء والنماء في طريقها مع استحضار كرم الله سبحانه وتعالى،بأن يضاعف لمن يشاء ، يضاعف بلا عدة ولا حساب، يضاعف من رزقه الذي لا يعلم أحد حدوده، تكرماً منه ونعمة، ومن رحمته التي لا يعرف أحد مداها.

والله واسع عليم، لا يضيق عطاؤه، ولا ينفد ما عنده، ﴿مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٖۗ﴾ [سورة النحل: ٩٦]، وهو عالِم بنوايا المنفقين إن كانوا يريدون بما أنفقوا وجه الله أو غير وجه الله، فهو لا تخفى عليه خافية، ولكن أي إنفاق هذا الذي ينمو ويربو؟ وأي عطاء هذا الذي يضاعفه الله في الدنيا والآخرة لمن يشاء؟.

إنه الإنفاق الذي يرفع المشاعر الإنسانية ولا يشوبها، إنه الإنفاق الذي لا يؤذي كرامة الإنسان، ولا يخرج شعوراً ولا يأسر قلوباً، ولا يستعبد إنساناً قال الشاعر:

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم فطال ما استعبد الإنسان إحسان

إنه الإنفاق الذي ينبعث من داخل القلب، وبأريحية ونقاء،غير مشبوب بشيء من أمور المصالح الدنيوية الفانية، الإنفاق الذي يتجه إلى الله وحده ابتغاء مرضاته سبحانه وتعالى، وكما قال الشاعرزهير بن أبي سلمى:

تراه إذا ما جئته متهللاً كأنك تعطيه الذي أنت نائله
ولو لم يكن في كفه غير نفسه لجاد بها فليتقِ الله سائله

ومما يروى أن هرم بن سنان آلى على نفسه أنه لا يسلم عليه زهير بن أبي سلمى إلا أعطاه، فقلَّ مال هرم، فكان زهير يمر بالنادي وفيه هرم بن سنان فيقول: أنعموا صباحاً ما خلا هرماً، وخير القوم تركت.

ويقال: أشرف ملابس الدنيا، وأفضل حللها وأجلبها للحمد، وأدفعها للذم وأسترها للعيب، كرم وسخاء يتحلى به الرجل السمح الكريم، وكفى بالبخل عاراً أن اسمه لم يقع في حمد أبداً، وكفى بالجود فخراً أن اسمه لم يقع في ذم أبداً، وما ادخّر الآباء للأبناء ولا أبقت الموتى للأحياء شيئاً أفضل من اصطناع المعروف عند ذوي الأحساب والآداب.

والكرم خلق كان معروفا عند العرب في الجاهلية، وقد امتازوا عن غيرهم من سائر الأمم به، وقد يعجب المرء لعطايا الكرماء ومنح الأسخياء لكثرتها وتعددها، وظن من لا يعرف الرجال ومواقف الرجال، أن ذلك من نسج الخيال والأساطير، ولولا أنها حق وصدق ما تفاخر بها القوم، وعدُّوها من أخلاقهم، وصفاتهم الحميدة.

قال عبد الله بن العباس رضي الله عنهما: ثلاثة لا أكافئهم: رجل بدأني بالسلام، ورجل وسّع لي في المجلس، ورجل اغبرت قدماه في المشيء إليّ إرادة التسليم عليّ، أما الرابع، فلا يكافئه عني إلا الله عز وجل، قيل: من هو؟ قال: رجل نزل به أمر فبات ليلته يفكر بمن ينزله، ثم رآني أهلاً لحاجته فأنزلها بي.

ولما لم يكن في الكرم إلا أنه صفة من صفات الله تبارك وتعالى، تسمى بها فهو الكريم عز وجل ، لكان خليقاً بالناس أن يتخلقوا بهذا الخلق ويتصفوا بهذه الصفة، ومن جاد ساد، ومن بخل رذ ل، ومنع الجود، سوء الظن بالمعبود.

قيل لعبد الله بن جعفر بن أبي طالب: إنك قد أسرفت في بذل المال، فقال: إن الله عز وجل قد عودني بعادة أن يتفضل عليّ وعوّدته أن أتفضّل على عباده، وأخاف أن أقطع العادة فيقطع عني الله عادته.

قيل لحكيم: هل شيء خير من الدراهم والدنانير؟، قال: نعم معطيهما، والكرماء هم سادة الناس، وشموس الدنيا، وكم من رجل أطلق بالخير يده، فخلّد ذكره بعدما انتهى رسمه،وعظم صيته بعد موته، لما بذل من معروف، وبما صنع من خير، ومن بذل دراهمه أحبّه الناس طوعاً أو كرهاً، ومن غزر عوارفه كثر معارفه. وقد جبل الناس على محبة من أحسن إليهم، قال الشاعر:

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم فطال ما استعبد الإنسان إحسان